



## مقدمة في فلسفة علم الجغرافية

ا.م.د. حسين الزياي

جامعة ذي قار – كلية الآداب

يعتبر علم الجغرافيا أقدم العلوم جميعاً لأنه نشأ مع بداية وجود الإنسان على سطح الأرض . لهذا فإن أقدم المدونات عن اهتمام الإنسان بطبيعة العالم الخارجي من حوله تشمل تأملات وملاحظات جغرافية مجردة . فمنذ ان وُجد الإنسان على سطح الأرض وهو يحاول معرفة خصائص المكان الذي يعيش فيه ، والسبب في ذلك هو "حب الاستطلاع curiosity" الكامن في النفس البشرية التي ترنو دائماً إلى معرفة المجهول ، وقد كانت تلك الغريزة هي الأساس الأول لنشأة الفكر الجغرافي ، عندما أخذ الإنسان يفكر فيما حوله من ظواهر طبيعية وكونية ، أو في إدراك اختلاف المظاهر من مكان إلى آخر أثناء تجواله وترحاله بين المناطق ، وقد نشأ هذا الفكر عندما حاول الإنسان تفسير هذه الظواهر والمظاهر في ضوء معرفته المحدودة آنذاك .

كما أدرك الإنسان مبكراً أن هناك علاقة ما تربطه بعناصر بيئته وأدرك في الوقت ذاته أن هناك علاقات تربط الظواهر الكائنة في الوسط الذي يعيش فيه ، هذه العلاقات relationships والارتباطات correlation شكلت منذ وقت بعيد الأساس النظري لعلم الجغرافيا المعروف بالعلاقات المكانية relationships spatial وحتى يصل إنسان ذلك الزمان إلى ذلك التكوين التصوري كان عليه أن يمر بمستويات من الإدراك لكي يتصاعد وعيه من الحسي إلى المطلق حيث كان يعيش الطبيعة الجامدة والحية ، الساكنة والمتحركة فيرى الظواهر المحيطة به في أبعاد متناهية ممتدة ما بين السماء وأجرامها وقمم الجبال من ناحية وقاع البحر من ناحية أخرى .

وكان الإنسان يتفاعل مع أحداث البيئة المحيطة به كالمطر والبرق والرعد ، ولم يكن من الضروري أن يفسر الظواهر على أساس عقلائي ، بل يكفي أن يقوم هذا التفسير على أساس ذهني يثير الأفكار التي تهتدي إلى تعليل الظواهر الكونية والظواهر الطبيعية ، ولذلك كانت للشعوب البدائية نظريات عديدة عن طبيعة العالم وكيفية نشأته ، فهذه

الشعوب التي عرفت بيئاتها المحيطة بها معرفة جيدة وأضافت إليها بعض المعلومات عن المناطق المجاورة لهذه البيئات كانت لها ملاحظاتها لما يحيط بها من ظواهر طبيعية وتفسيرات لهذه الملاحظات تتناسب مع مستواها الفكري .

لقد بدأ علم الجغرافيا عندما بدأت المشاهدة والملاحظة للأرض ومظاهرها أو للكون وظواهره . ومن ثم لم يقف طموح الإنسان الفكري ورغبته في المعرفة عند حد التعرف على مواقع وأشكال الظواهر المكانية بل تعدى ذلك إلى محاولة التفسير والتعليل ، تفسير النشأة وتفسير الشكل form ثم تطور الأمر إلى محاولة تفسير كيفية التوزيع distribution ، ولهذا نجد الجغرافيا المعاصرة تهتم بأمور ثلاثة هي : التوزيع والربط والتعليل أو التفسير interpretation فتسأل عدة أسئلة عن الظاهرة الجغرافية هي : أين ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ .

يعود مصطلح الجغرافيا إلى العصر الإغريقي ويعتبر العالم اليوناني ايراتوستينوس Eratosthenes اول من اطلق كلمة جغرافيا وهي كلمة يونانية مكونة من مقطعين من جيو ( Geo ) وتعني الارض اما ( Graphein ) فتعني الكتابة او ان تكتب . ومنذ البداية تركزت الكتابة عن البيئة الطبيعية للأرض وعلى طبيعة نشاطات الناس الذين سكنوا الاماكن المختلفة من العالم المعروف آنذاك وبالنسبة الى سترابو ( Strabo ) 64 ق م كانت مهمة الجغرافيا مقتصرة على وصف الأرض فقط .

### تاريخ الجغرافيا الحديثة :

يبدأ تاريخ الجغرافيا الحديثة في القرن السابع عشر بداية غامضة، ويمكن اعتبار كتاب كارنيوس Karnius الذي صدر في منتصف القرن السابع عشر بعنوان " الجغرافية العامة " ، علامة مضيئة في تاريخ الفكر الجغرافي الأوروبي، كما أن بعض الجغرافيين يعتبرونه المؤسس الحقيقي للعلم الجغرافي؛ فقد أطلق على دراسة الظواهر الطبيعية والبشرية دراسة عامة اسم " الجغرافية العامة " والدراسة الإقليمية لأجزاء مختلفة من سطح الأرض اسم " الجغرافية الخاصة " ورغم أن العمر لم يمتد بفارنيوس ليفصل ما أجمل، فإنه قد وضع بهذا المفهوم الجديد قواعد الدراسة الجغرافية السليمة لأول ثنائية تقليدية في الجغرافيا، وهي الأصولية ( أو العامة ) والإقليمية ( أو الخاصة ) وقد ساعدت الكشوف الجغرافية الكبيرة على تقدم الدراسات الجغرافية، تلك الكشوف التي بدأت منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر، وكان هم

المشتغلين بالجغرافيا، أثناء تلك الفترة، تصحيح معلوماتهم عن سطح الأرض، بحيث تصبح وافية ومطابقة لأحدث المستكشفات في ذلك الزمن. ومع ذلك، يجب أن لا نقلل من أهمية تلك القرون الخطيرة في تاريخ الجغرافيا، التي جمعت فيها الحقائق والمعلومات عن سطح الأرض، إذ كانت الأساس الذي لا بد منه للنهوض بالجغرافيا، وكان من المستحيل أن تنشأ الجغرافيا الحديثة لو لم تستند إلى معلومات صحيحة عن الأرض وطبيعتها وسكانها ونباتها وحيوانها ... الخ .

وعموماً، يمكن أن نحدد مراحل الجغرافيا الحديثة وتطورها على النحو التالي :

- 1 - الفترة السابقة للكلاسيكية من 1750 - 1800 م.
- 2 - الفترة الكلاسيكية من 1800- 1859 م.
- 3 - الفترة ما بعد الكلاسيكية من 1859 - 1904 م.
- 4 - الفترة المعاصرة من 1904 - 1980 م.
- 5 - فترة العولمة من 1980 – حتى الآن .

### تعريف الجغرافية:

من الناحية اللغوية كلمة الجغرافية تعتبر حديثة بعض الشيء ، حيث كان العرب المسلمون يستعملون صورة الأرض أو قطع الأرض أو خريطة العالم والأقاليم أو المسالك والممالك أو تقويم البلدان أو علم الطرق . وقد خضعت الجغرافيا كغيرها من العلوم لكثير من التغيير والتطوير كما عانت أيضاً من اختلاف العلماء والمفكرين في عدم التحديد الدقيق لتعريفها ووظيفتها ومفهومها ، بل نجد أن لكل مجموعة من العلماء والمفكرين تعريفاً لعلم الجغرافيا.

ينفرد علم الجغرافيا دون العلوم الأخرى بتعدد تعريفاته ، وذلك لعدة أسباب منها:

- 1- قدم العلم ورجوع أصوله إلى بداية إدراك الإنسان لما حوله من ظواهر جغرافية
- 2- اختلاف تفسير الإنسان للظواهر التي توجد علي سطح الأرض من زمن إلى آخر وفقاً للتطور الفكري للمجتمعات البشرية .
- 3- التطور المستمر للفكر الجغرافي .
- 4- الطبيعة المعقدة المركبة للعلم .

ان اي تعريف لاي ظاهرة طبيعية او بشرية يجب ان يكون شاملا للشيء المعروف بشكل موجز وغير منقوص وان يكون محددًا وغير مجتزأ وتعريف الجغرافيا كعلم يجب ان يحتوي على اساسيات منها :

1- ما هو ميدان الجغرافيا 2- ما هي المهمة الجغرافية 3- ما هي أهداف الجغرافيا  
وكل جغرافي يتمتع بحس فلسفي لعلم الجغرافية يحاول إن يضع تعريفا خاصا به  
للجغرافيا ، الا ان بعض التعاريف يكتنفها الغموض ويشوبها النقص ، لأنها تفتقر للشمول  
الذي يميز علم الجغرافية كعلم توسعت آفاقه وتعددت مضامينه واتجاهاته.  
إن الهدف من تحليل هذه التعاريف هو أن نبين من خلالها الاتجاهات الفكرية في العلوم  
الجغرافية , كما نريد إن نستعرض من خلالها المصطلحات الخاصة بالفلسفة الفكرية  
الجغرافية المتوفرة بين أيدينا التي قدمت من قبل الجغرافيين ، ونحدد التعاريف الجديدة إذا  
كان ورائها فلسفة علمية أدت في الواقع الى تطوير هام لعلم الجغرافيا أو لأحد فروعها .  
ومن التعريفات الجغرافية السريعة أو المجتزأة هي :-

1-الجغرافيا علم وصف الارض

2- الجغرافيا هي علم التوزيعات.

3- الجغرافيا هي علم فلسفة المكان.

4- الجغرافيا هي علم العلاقات المكانية.

5- الجغرافيا هي علم الاختلافات المكانية.

6- الجغرافيا هي علم الأمكنة.

7- الجغرافيا هي علم الاختلافات الإقليمية.

8- الجغرافيا هي علم النظم المكانية .

والسؤال المطروح الآن يكمن في كيفية النظر إلى جملة هذه التعريفات ، وهل يجب  
اعتمادها علميا حيث يلاحظ على بعض التعريفات عدم شموليتها وبعضها يكتنفه الغموض  
، على سبيل المثال : الجغرافيا هي علم فلسفة المكان ، علما ان بعضها جاء على يد  
جغرافيين كبار .

كما لا تخضع جميع هذه التعاريف إلى التعريف المثالي للجغرافيا الذي يجب إن  
يتضمن ميدان الجغرافيا ومهمتها وأهدافها ، ويضاف إلى قضية الغموض عدم الدقة في  
ترجمة المعاني الأصلية من المراجع الأجنبية التي أخذت منها ، وفي اللغة العربية فان  
التعبير المكاني للجغرافيا هو السائد حاليا والمقصود به سطح الأرض . وسنورد بعض  
التعريفات والمآخذ التي تؤخذ عليها .

## اولا- الجغرافيا علم وصف الأرض .

هو أقدم تعريف للجغرافية ، وهذا التعريف مستمد من المعنى الحرفي لكلمة "  
جغرافية Geography " المشتقة من الجذور الإغريقية Geo بمعنى الأرض و Graphy

وتعنى وصف ، والمعنى الإجمالي هو وصف الأرض . ويتعرض هذا التعريف لانتقادات عديدة منها :

- 1 - انه يجعل من الجغرافيا مادة وصفية ، ويفقدها الصفة العلمية . كما أن اقتصار الجغرافيا على الوصف من شأنه أن يجعل الجغرافي يلتزم الموسوعية مما يباعد بينه وبين التحليل والتحقيق العلمي .
  - 2 - ان عملية جمع المادة الخام تعد مرحلة من مراحل البحث العلمي تتلوها مراحل أخرى تقوم أساساً على التحليل . لذلك فإن الحقائق والمعلومات الجغرافية يجب ان توظف لاكتشاف الحقائق وان لاتكون عملية الجمع هدفا لذاتها .
  - 3 - إن الاقتصار على الجانب الوصفي من شأنه أن يحول الدراسة الجغرافية إلى ما يشبه دوائر المعارف ، ويحول دون التوصل إلى قواعد عامة وقوانين علمية تحكم الظواهر الجغرافية المختلفة ، وبمعنى آخر يباعد بين الجغرافيا وبين تقنيها علمياً .
- ثانيا- الجغرافيا علم التوزيعات :**

اقترح بعض الجغرافيين خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر تعريف الجغرافيا بأنها علم التوزيعات . غير أن هذا التعريف لم يلبث - بحكم قصوره - أن لقي نقداً شديداً من جغرافي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وتلك الانتقادات تتلخص فى الاتي :

- 1 - إذا كانت الجغرافيا علم التوزيعات فما هي حدودها ؟ لان كل شئ على سطح الأرض يقع بالضرورة في مكان ويخضع للتوزيع على سطح الأرض أو على جزء من سطح الأرض ، ومعنى هذا أن الجغرافيا تبعاً لهذا التعريف تختص بتوزيع أي شئ بصرف النظر عن صلة هذا الشيء بالجغرافيا .
- 2 - أن توصيف الجغرافيا بعلم التوزيعات واختصاصها بتوزيع أي شئ ، يجمع داخل نطاق الجغرافيا أشياء وظاهرات متنافرة مما يفقد الجغرافيا ماهيتها . والمعروف أن الوحدة والتجانس بين الظاهرات التي يدرسها أي علم شرط أساسي لبلورة هذا العلم . وهذا يفتح المجال لاتهام الجغرافيا بأنها علم مركب يضم خليطاً متنافراً من الموضوعات التي لا تعدو أن تكون أجزاء من علوم أخرى .
- 3 - أن تعريف الجغرافيا بعلم التوزيعات يسلب الجغرافيا كيانها المستقل عن العلوم الأخرى ، ذلك أن التوزيع فى الحقيقة هو منهج علمي تستخدمه علوم كثيرة ، فعلم الجيولوجيا يعنى بتوزيع الظاهرات الجيولوجية كالبراكين مثلاً ، وعلم النبات يعنى بتوزيع الصور النباتية . ووالخ . وليس معنى هذا الا يتعرض الجغرافي للتوزيع ذلك لان التوزيع هو نقطة البداية الحقيقية لدراسة أي ظاهرة جغرافية ، كل ما في الأمر أن الدراسة

الجغرافية هي أوسع وأشمل بكثير من مجرد توزيع ظاهرة ما أو مجموعة من الظواهر  
توزيعاً مكانياً على الخريطة .

### ثالثاً- الجغرافيا علم الاختلاف الإقليمي :-

استقر رأى الجغرافيين على أن إبراز الاختلافات الإقليمية كونها من صميم اختصاص  
الجغرافيا وأنه الهدف الرئيسي الذي يسعى علم الجغرافيا إلى تحقيقه . وقد دعا هذا بعض  
الجغرافيين إلى تعريف علم الجغرافيا بأنه علم الاختلاف أو التباين الأرضي أو الإقليمي ،  
ونتيجة لذلك زاد اهتمام الجغرافيين بالدراسات الإقليمية ، وأصبحت الجغرافيا الإقليمية  
فرعاً أساسياً من فروع علم الجغرافيا .

ولا يقتصر إبراز الجغرافيا للاختلافات الإقليمية على ظاهرة جغرافية واحدة ولكنه  
تعداها إلى إبراز هذه الاختلافات في مجموعة من الظواهر الجغرافية مجتمعة.  
الواقع أن تعريف الجغرافيا بأنها علم الاختلاف الإقليمي يرتبط بتعريفها بأنها علم  
التوزيعات ، ذلك أن التوزيع وإبراز الاختلاف إنما يرتبطان ببعضهما ، بل أن التوزيع  
ينبغي ألا يكون هدفاً وغاية بل ينبغي أن يكون وسيلة لإبراز الاختلاف الإقليمي ، ومعنى  
هذا أن التوزيع وحده يعتبر دراسة جغرافية يشوبها النقص وإن كان يدخل في صميم  
الجغرافية .

### تعريف الجغرافيا من خلال بعض الموسوعات العلمية الرئيسية:

- 1- تعريف الموسوعة العلمية الفرنسية :- الجغرافيا هي العلم الذي يهدف إلى وصف  
الشكل الحالي لسطح الأرض حسب مظاهره الطبيعية والبشرية .
- 2- تعريف الموسوعة البريطانية :- هو العلم الذي يهدف إلى بيان وتفسير سطح الأرض  
الحالي حسب ظواهره الطبيعية والبشرية بهدف تحديد شخصية الأقاليم .
- 3- تعريف لجنة المصطلحات البريطانية 1950 م :- الجغرافيا هي دراسة الاختلاف  
المكاني لسطح الأرض حسب خصائص وصفات وعلاقات عناصر سطح الأرض مع  
بعضها البعض وانتظامهما كالمناخ والتضاريس والأنهار والنبات والسكان والصناعة  
والإدارة .
- 4- تعريف الجمعية الجغرافية الأمريكية 1927م :- الجغرافيا هي علم ايكولوجية سطح  
الأرض الذي يعني بدراسة استجابات الإنسان لعناصر البيئات الطبيعية المختلفة .
- 5 - مؤسس الجغرافيا الألماني " هنتر " 1898م :- الجغرافيا هي علم معرفة مناطق  
الأرض حسب اختلاف بعضها عن بعض الآخر مع الأخذ بنظر الاعتبار الإنسان الذي  
يعتبر جزء لا يتجزأ من طبيعة منطقة ما , ومن ناحية أخرى يقول بأن الجغرافيا : هي  
العلم الذي يدرس التوزيعات الجغرافية لسطح الأرض أي انه علم المناطق والأمكنة وما

يختص باختلافاتها وعلاقاتها المكانية.

6- تعريف الفرنسي "دو كلوزيه" المأخوذ من كتابه ( تطور الفكر الجغرافي) الذي عربه عبد الرحمن حميدة والمنشور عام 1982م : الجغرافيا هي العلم الذي يدرس سمات سطح الأرض أي المشهد المنظور "اللاندسكيب " الذي ينتج عن تفاعل المناخ والتضاريس والتجمعات النباتية والحشود البشرية وكذلك تدرس الجغرافيا القوى الطبيعية والبشرية التي تتحكم بتنظيم " اللاندسكيب " في الزمان والمكان فهي تسعى لان تفسر تناسقها على سطح الأرض داخل الإطارات الإقليمية.

اما الجغرافيون العرب فقد اعطو تعريفات متعددة للجغرافية نوجز البعض منها :-

1- عبد الفتاح وهيبه : الجغرافيا هو العلم الذي يدرس العلاقات المتبادلة التي تدخل في الغالب في اختصاص علوم مختلفة , الأمر الذي يجعل منها علما توليفيا ، ولعل مرجع ذلك إن الجغرافيا حينما تدرس ظاهرة من الظواهر لا تدرسها بمعزل من غيرها وإنما من خلال كل ما يربطها وترتبط به من عناصر .

2- رشود الخريف : الجغرافيا هي وصف للتبيان المكاني وتفسير ذلك من خلال ربط الاختلافات المكانية بخصائص الأماكن سواء كانت هذه الاختلافات اجتماعية أو اقتصادية أو طبيعية أو بيئية .

3- حسن أبو العنين : الجغرافيا هي العلم الذي يدرس البيئة والإنسان ومدى العلاقة و التفاعل بينهما واثر الإنسان في تشكيل البيئة في نشاط الإنسان وحياته .

4- محمد محمود محمد وطه عثمان الفراء : الجغرافيا هي : علم من العلوم الإنسانية يدرس سطح الأرض في تباينه المساحي بوصفة موطننا للإنسان وذلك بأسلوب عملي منظم يقوم على الملاحظة والوصف والشرح واستنتاج العلاقات القائمة بينهما وبين الإنسان في البيئات المختلفة.

5- صفوح خير : في كتاب البحث الجغرافي مناهجه وأساليبه يقول بأن الجغرافيا : هي علم دراسة العلاقات بين البيئة الطبيعية والإنسان أو هي علم دراسة توافق النشاطات البشرية للبيئة الطبيعية.

6- شاكر خصباك في كتابه " طبيعة الجغرافيا " يقول بأن : الجغرافيا هي العلم الذي يهتم بدراسة الظواهر الجغرافية المختلفة على سطح الأرض وقد تشمل هذه الدراسة الاهتمام بظاهرة أو مجموعة من الظواهر الطبيعية او البشرية.

7- محمد متولي في كتاب الجغرافيا السياسية ومحمود أبو العلا يقول بأن : الجغرافيا تدرس الظواهر على سطح الأرض الطبيعية والبشرية القائمة في الوقت الحالي .

وتسمح الدراسة المقارنة لجملة التعاريف السابقة من التوصل الى التعريف الشامل الذي يجب ان يوجز حقل ومهمة الجغرافيا وأهدافها بالصورة التالية :

الجغرافيا هي العلم الذي يهتم بدراسة سطح الارض وماعليه من ظواهر طبيعية وبشرية واقتصادية ضمن اطارها المكاني والزماني بهدف الاستغلال الأمثل للموارد وتجنب الاضرار المحتمل تعرض الانسان لها ، علما ان هناك مفاهيم مهمة في الجغرافية منها التباين والتوزيع والعلاقات المكانية .

والجغرافية هي علم المكان وعندما تتعدد ظاهرات المكان لايعني ان العلم تعدد او تفرع بتعدددها ، والتفرع كما يبدو ليس بتفرع أو انشطار والخلل يكمن في التسميات ، فعندما تقول " الجغرافية الزراعية " فإن (ياء) النسبة توهم المطلع على ان الجغرافية ذاتها زراعية والجغرافية الصناعية ذاتها صناعية ، والبديل الافضل للتسمية هو جغرافية الزراعة ، او علم مكان الزراعة وعلم مكان الصناعة ، فالجغرافية واحدة نطبقها مرة على الزراعة ومرة على الصناعة ومرة على النقل او .... الخ ولو حظ اخيرا ان بعض الدراسات تكتب في مواضيع بيئية فتضع اسفل العنوان دراسة بيئية او دراسة زراعية او صناعية ، وهذا امر غير صحيح لان الباحث بذلك يحاول ان يكون اختصاص داخل اختصاص فالاحرى ان يقول دراسة في جغرافية البيئة او الزراعة او .. الخ

تدرس (الجغرافية) اذن ظاهرات عدة لا ينبغي تفرعه بتسمياتها ، يدرسها مجتمعة في المكان ضمن ابعاده الفلسفية ، ويكشف انماطا وعلاقات مكانية , منهجه واحد وأبرز ما فيه النظرة التكاملية الى الظواهر الطبيعية والإنسانية مجتمعة ومتفاعلة في اطار المكان , بغية اظهار صورة نظام المكان والإرشاد الى ما يصيب الصورة من خلل والتشويه وان علم المكان يرى الحقائق والعلاقات مجتمعة في اطار المكان بقوانين خاصة تفرضها طبيعة المكان نفسه ، أي طبيعة مكوناته الاساسية او البنوية .